لغز غابة الشيطان



محمود سالم

لغز غابة الشيطان

تأليف
محمود سالم



لغز غابة الشيطان

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: أحمد رحمي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٥٠٥ ٠

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٥.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

ضحكات ... ومناقشات وسمك

كان الكشك الخشبي الذي نزل به المغامرون الخمسة في «سيدي عبد الرحمن» يُطلُّ على أجمل مَنظر في العالم ... هكذا كانت تفكِّر «نوسة» وهي تجلس في الشُّرفة الواسعة وحدها ... السماء ذات اللون الأزرق الفاتح ... تلتقي بالماء ذي اللون الأزرق الغامق ... الرمال الصفراء الذهبية تمتدُّ حتى تصل إلى الشاطئ ... والصمت والريح الخفيفة ... وبعض طيور البحر ... و«زنجر» يجلس تحت قدمَيها يرفع أنفه إلى فوق بين لحظة وأخرى ... كأنه يتشمَّم رائحة المغامرين الغائبين ... وفي يد «نوسة» كتاب، وأمامها راديو ترانزستور صغير يأتي بموسيقى خفيفة.

كانت «نوسة» تريد أن تتحدَّث مع أي شخص ... أن تقول له ما تُحسُّ به ... فأحنَت رأسها على «زنجر» وقالت: هل رأيت مَنظرًا أجمل من هذا يا «زنجر»؟

رد «زنجر» بنُباحٍ خفيف ... لم تفهم منه «نوسة» ... هل هو مُوافق ... أم مُعترض ... ومضت تقول: وهواء ... وسكون ... ما رأيك يا «زنجر»؟

عاد «زنجر» ينبح في تكاسُل وكأنه ضيِّق الصدر بهذا الكلام ... إنه لا يحب هذا السكون ويريد أن يجريَ بعيدًا ... أو يتعقَّب لصًّا، أو حتى يُعابث الشاويش «فرقع» ... أما الجلوس هكذا فأمرٌ لا يحتمله ... وهو يفكِّر أن المغامرين قد أخطئوا كثيرًا بحضورهم إلى هذا المكان الصامت.

وفجأةً رفع «زنجر» أذُنَيه، ثم قفز إلى الشُّرفة في ثلاث قفزات سريعة وانطلق يجري ... وعرفَت «نوسة» أن بقيَّة المغامرين قد عادوا من السوق؛ فقد ذهبوا لشراء ما يحتاجون إليه للغداء، وفضَّلَت هي البقاء وحدها.

وكان عم «تختخ» الذي يملك هذا الكشك قد دعاهم لقضاء جزء من إجازتهم الصيفية؛ لأنه سافَر مع أسرته إلى أوروبا، ولم يتردَّد المغامرون في قَبول هذه الدعوة.

كان الكشك الأصفر يقف بعيدًا عن بقيَّة «الشاليهات» و«الأكشاك» فوق رَبوةٍ عالية تمتدُّ بجِواره قطعة أرض مزروعة بأشجار التين ... ويُحيط بها سِياج من شجر الخِروَع الشديد الخُضرة ...

وحملت الريح إلى «نوسة» أصوات المغامرين وهم يتحدَّثون ... ولاحظت على الفور أن أصواتهم عاليةٌ أكثر من العادة ... ومن الواضح أنهم مُنهمِكون في نِقاشٍ حاد.

وعندما وصلوا إلى قُرب الكشك بدأت أجزاء من النِّقاش تصل إليها ... «لوزة» تؤكِّد أنها سمِعَت شيئًا ... و«عاطف» كالعادة يسخر منها ... وكلما ازدادت سخريته، تمسَّكت «لوزة» بموقفها.

كانوا يحملون الأطعمة التي اشترَوها ... وكانت «لوزة» تلوِّح بحُزمة الجرجير الخضراء وتقول: سوف تقرأ هذه الأخبار في الصُّحف!

عاطف: من المُدهِش أنكِ تعرفين الأخبار قبل أن تعرفها الصُّحف، ولا بد أنك وكالة أنباء متحرِّكة!

لوزة: إنك فقط تُجيد السُّخرية ... ولا تفعل شيئًا أكثر من هذا!

عاطف: هذا أفضل من أن أُطلِق إشاعات عن أشياء لم تحدُث!

تدخَّل «محب» في الحديث قائلًا: على كل حال المسألةُ أبسط من هذه المناقشة الحامية، ستأتي الجرائد في المساء ... وسوف نرى!

عاطف: وإذا لم تنشر الصحف أي شيء عمَّا تقوله «لوزة»؟

محب: في هذه الحالة تدفع «لوزة» ثَمن خمس زُجاجات كوكاكولا كعقوبة!

لوزة: وإذا صحَّت الأخبار؟

محب: يدفع «عاطف» ثَمن الزجاجات.

تختخ: لقد حللتَ المشكلة بطريقة القرد!

وكانوا قد وصلوا إلى مدخل الكشك الصيفي ... فوضعوا ما يحملون. وقالت «لوزة»: ما هي طريقة القرد التي تتحدث عنها يا «تختخ»؟

تختخ: يُحكى أن قطَّتَين اختلفتا على قسمة قطعة من الجبن ... فذهبتا إلى القرد ليحكم بينهما ... فأحضر القرد ميزانًا ... وقسم قطعة الجبن قسمَين ... وضع كل قسم منها في كِفَّة من الميزان ... ولكن القسمة لم تكُن مضبوطة؛ فإحدى القطعتَين أثقل من

الأخرى ... فأكل القردُ منها جزءًا ... فأصبحت أخفَّ من الثانية ... فأكل من الثانية فأصبحت أخفَّ من الأولى ... وهكذا مضى يأكل قطعة من هنا وقطعة من هناك حتى انتهت قِطعتا الجبن ولم تحصل القطَّتان على أي شيء.

عاطف: وقد قام «محب» بدور القرد تمامًا ... فسيشرب كوكاكولا مجَّانًا في الحالتَين.

قالت «نوسة» وهي تضع الكتاب: إنني أسمع نِقاشًا حارًّا وأخبارًا عن قرود وقِطط دون أن أعرف ما هي الحكاية بالضبط!

اندفعت «لوزة» كعادتها قائلةً: لقد سمِعت بالمصادفة شخصَين يتحدَّثان عن سيارةٍ اختفت أمس في الطريق بين مَرسى الحمراء والإسكندرية ... وأن رجال الشرطة يبحثون باهتمامٍ شديد عنها ... ويبدو أن في السيارة شيئًا هامًّا.

نوسة: هذا ممكن، ولكن أين مَرسى الحمراء أو ميناء الحمراء هذا؟

تختخ: إنه مَرسًى لناقلات البترول يبعُد عن العَلمين بنحو ثلاثين كيلومترًا.

نوسة: وماذا كانت تحمل السيارة؟

لوزة: لا أعرف ... ولكني أعتقد أنها تحمل شيئًا أو أشياء هامَّة ... فقد كان واضحًا أن الرَّجلَين يتحدَّثان بتكتُّم واهتمام!

عاد «عاطف» إلى سخريته قائلًا: وما دخلُنا نحن في هذا الموضوع؟ هل نحن مسئولون عن السيارات التي تختفي؟ ...

لوزة: ألسنا مُغامرين؟ وكل الأحداث التي تقع حولنا تهمُّنا!

عاطف: شيءٌ مُدهِش ... إن هناك وزارةً كاملة اسمُها وزارة الداخلية مسئولة عن الأمن ... بل هناك أجهزةٌ أخرى مسئولة أيضًا ... ونحن بالنسبة لهؤلاء وأولئك لا شيء على الإطلاق!

لوزة: إنك تقلِّل من شأننا برغم أننا حللنا عشرات الألغاز، وخُضنا عشرات المغامرات، وكنَّا موضع تقدير الشرطة.

قطعت «نوسة» النِّقاش قائلةً: الآن سنقسِّم العمل، فمَن الذي سيقوم بتنظيف السمك؟

تختخ: كيف عرفت أننا اشترينا سمكًا؟

أشارت «نوسة» إلى أنفها وقالت: أعتقد أن الله خلق الأنف للشَّم، وقد استعملته في الغرض الذي خُلِق من أجله.

ضحِك «عاطف» وهو يقول: لقد أصبحت مِثل «زنجر»!

نوسة: هذا تشبيهٌ سخيف!

تختخ: سأقوم أنا بتنظيف السمك ... فهو سمكٌ كبير الحجم ... ويحتاج إلى يدَين قويتَين لتنظيفه.

محب: سأُعدُّ أنا الأرز الفاخر!

نوسة: وأنا أُعدُّ طبق السلاطة!

عاطف: وأنا سأُعدُّ نفسي للأكل!

وضحِك المغامرون ... وأسرعوا إلى المطبخ ... لقد قرَّروا ألا ينزلوا البحر في هذا اليوم ... بعد أن قضَوا الأمس كله في الماء.

وانهمك كلُّ واحد في المهمَّة التي سيقوم بها ... وجلس «عاطف» يُساعد «تختخ» في تنظيف السمك ... كان عليه أن ينظِّف القشور بعد أن يقوم «تختخ» بقطع الزعانف.

جلست «لوزة» و«نوسة» ينظِّفان الأرز لتسليمه إلى «محب» ... وجلس «تختخ» و«عاطف» ينظِّفان السمك ... و«محب» يجهِّز الأواني. ولم يجد «زنجر» ما يفعله إلا التجوُّل حول الكشك.

وفجأةً اندفع ناحية الشاطئ ... ولاحَظ المغامرون أنه يجري هنا وهناك، وعيناه على الأرض ... فقال «تختخ»: إنه يُطارد «كابوريا» صغيرة من التي تعيش في الرِّمال الرَّطبة.

ولم تستمرَّ المطاردة طويلًا، ومنذ وضع «زنجر» قبضته القوية على الكابوريا ونبح مُعلِنًا انتصاره ... ولكن هذا الانتصار تحوَّل فورًا إلى ألمٍ شديد ... فقد أطلق «زنجر» صرخةً مُوجِعة، وأخذ يقفز في الفضاء.

وأسرع المغامرون يتركون ما في أيديهم ... واندفعوا جميعًا إليه ... ولكنه صمت فجأةً كما صرخ فجأةً ... وتحوَّل صُراخه إلى عويلٍ هادئ حزين.

وعندما وصلوا إلى مكانه وجدوه يهرش أنفه بشدة ... وقال «تختخ» مُبتسمًا: لقد قرصته «الكابوريا» في أنفه ... كان يجب أن ينتظر حتى تموت قبل أن يقرِّب أنفه منها.

طأطأ «زنجر» رأسه مُعلِنًا أسفه ... على حين ربَّتَت عليه «لوزة» وهي تقول: ماذا جرى لك ... هل ضحِكت عليك الكابوريا؟

هزَّ «زنجر» رأسه ... وعاد معهم إلى الكشك ... وعاوَدوا العمل ... ولم تمضِ سوى ساعة حتى كانت رائحة السمك المقلي الشهيَّة ترتفع في الكشك، وانطلق المغامرون الخمسة يُغنُّون معًا ...

كانوا جميعًا في غاية السعادة ... البحر ... والهواء ... والطعام اللذيذ والصداقة التي تجمعهم.

وأعدَّت «نوسة» المائدة ... وأخذ «تختخ» ينقل السمك من المِقلاة وهو يصيح: يا سلام ... الأسطى «تختخ» الطبَّاخ يقدِّم لكم أشهى أكلة في العالم ...

قال «عاطف» وهو يخطف قطعةً من السمك، ويتذوَّقها مُتلذذًا: يا سلام ... الأستاذ «عاطف» الشهير يتنازل بتناول الطعام مع بعض الأولاد المساكين.

وفجأةً على الباب المفتوح ظهَر رجلٌ طويل القامة ... لم يكَد الأصدقاء يرَونه حتى توقَّفوا عمَّا يفعلون ... فلم يتوقَّعوا أبدًا أن يظهر هذا الرجل في هذه اللحظة!

«لوزة» لا تدفع الحساب

لم يكُن الرجل سوى ... المفتِّش «سامي».

وترك الأصدقاء جميعًا المائدة، واندفعوا إليه يحيُّونه بمنتهى الحرارة ... فقد كانت مفاجأة لهم لا يمكن تقديرها.

وحمل المفتش «سامي» «لوزة» بين ذراعَيه كالمُعتاد، وقال مُبتسمًا: إنني أشمُّ رائحة سمك مَقلي!

قالت «لوزة» ووجهها كله يبتسم: ألمْ تتناول غداءك بعد؟

المفتش: لا.

لوزة: يا لها من صدفةٍ مُمتِعة ... هذه أول مرة نأكل فيها معًا ... لقد شرِبنا معًا كثيرًا من الشاي ... والمثلَّجات ... وأكلنا معًا قِطع «الجاتوه» ... ولكن السمك المقلي ... لا أظن!

ودخل المفتش يغسل يدَيه ثم عاد، وجلس إلى المائدة وقال: من هو الطبَّاخ العبقري الذي فعل كل هذا؟

رد «عاطف» بسرعة: أنا طبعًا.

صاحت «لوزة»: أبدًا ... إننا جميعًا قد اشتركنا في العمل!

ابتسم المفتش وهو يُمسِك بقطعة سمك ويرفعها إلى فمه: وهل كنت تظنِّين يا «لوزة» أنني يمكن أن أصدِّق «عاطف»، إنني أعرف أنه يَسخر بالطبع، ولعله أقل واحد فيكم قد اشترك في العمل.

ضحِك «عاطف» وقال: كيف عرفت؟

المفتش: ألا تذكُر أنني أشتغل مُفتشًا في المباحث الجنائية؟

عاطف: وهل جئت إلى «سيدي عبد الرحمن» بهذه الصفة؟

غابت الابتسامة عن وجه المفتش لحظةً سريعة، ثم قال بهدوء: دعُونا نتناول هذا الغذاء الشهيَّ دون الحديث في العمل ... فهو يُفسِد الشهيَّة.

تختخ: وكيف عرفت أننا هنا؟

وعاوَد المفتش الابتسام وقال: هل هذه مشكلة يا «توفيق»؟ لقد اتَّصلت بمنزلكم وقال لي والدك إنكم هنا ... وقد كانت مفاجأةً مُفرحة لي أن أعلم أنني سأراكم هنا.

ومضى الجميع يأكلون في شهيَّة ... حتى إذا انتهى الغداء قال المفتش: دون مبالغةٍ هذه الأكلة من أمتع الأكلات التي تناولتُها في حياتي!

محب: بالهناء والشفاء.

نوسة: هل تأكل بِطِّيخًا ... أم تفضِّل كوبًا من الشاي؟

المفتش: بل كوب من الشاي هو ما أحتاجه ... فإنني لم أنَم طول الليل، وأريد شيئًا ينشِّطني.

نوسة: دقائق قليلة.

خرج الجميع إلى الشُّرفة، وتمدَّد المفتش في كرسيٍّ طويل من القماش «شيزلونج»، ووضع ساقًا على ساق ... وألقى برأسه إلى الخلف، وأطلق آهةً دلَّت على تعبه الشديد.

جلس المغامرون صامتين ... حتى «زنجر» أخذ يتناول طعامه في صمتٍ هو الآخر، وكان هواء البحر البارد يهبُّ هادئًا ... ويتلاعب بشعر المفتش ... ومضت بضع دقائق دون أن يتحدث أحد ... ثم ظهرت «نوسة» وهي تحمل كوب الشاي ... واقتربت من المفتش، وهي تمدُّ يدَيها بالصينية ... ولكن المفتش لم يمدَّ يده ... ونظرت «نوسة» إليه ووجدت أجفانه مُطبِقة ... وقد ذهب في نومٍ عميق.

عادت «نوسة» بالصينية، ونظر إليها الأصدقاء، فقالت هامسةً: لقد نام.

أشار «تختخ» للأصدقاء فانسحبوا جميعًا في هدوء ... وعندما ابتعدوا مسافةً كافيةً قال «تختخ»: إنه في أشد الحاجة إلى الراحة ... فدعوه نائمًا، وهيَّا بنا نذهب إلى الفندق ... نشرب شيئًا باردًا.

لوزة: لعل الصحف تكون قد وصلت.

عاطف: ولا نجد فيها شيئًا عن السيارة المفقودة ... وتدفعين أنت الحساب ...

لوزة: موافقة.

واتَّجهوا جميعًا إلى الفندق ... وتركوا «زنجر» بجوار المفتش، وعندما وصلوا إلى الفندق سألوا عن الصحف، فقال موزِّع الصحف: إنها لم تأتِ بعد ... ربما بعد نصف ساعة.

وقرَّروا أن ينتظروا ... فاختاروا مائدةً قريبة من البحر، وجلسوا حولها يتحدَّثون.

فقال «محب»: إن المفتش كما يقول لم ينَم طول الليل ... ومن الواضح أنه مُجهَد جدًّا، فهل جاء في إجازة؟

لوزة: لا أعتقد ... فما الذي يجعله لا ينام طول الليل إذا كان في إجازة؟

محب: لعل إجازته تبدأ اليوم ... وسهِر أمس في إنجاز ما عنده من أعمال.

نوسة: جائز جدًّا.

تختخ: أرجِّح جدًّا أنه جاء في عمل.

محب: كيف عرفت؟

تختخ: عندما سأله «عاطف»: هل جئت إلى «سيدي عبد الرحمن» بصفتك ضابط مباحث؛ أي في عمل؟ ... لاحظت أن الابتسامة غابت عن وجهه لحظةً، وبدا عليه الضِّيق ... وأرجِّح أن هناك قضيةً غامضة يحقِّقها المفتش، أو أنه يُطارد مُجرمًا عاتيًا مُختبئًا في هذه المنطقة.

عاطف: ولماذا تُتعِبون أذهانكم بالاستنتاج؟ سوف نعرف بعد أن يستيقظ من النوم.

لوزة: لعله يُخفي عنا ... فقد تكون المسألة خطيرة جدًّا ... وأحيانًا يُحب المفتش أن يُبعدنا عن القضايا الخطيرة حتى لا نُصاب بأذًى.

وجاءت زجاجات «الكوكاكولا» المثلَّجة ... وانهمكوا جميعًا في الشُّرب. وقال «تختخ»: لقد جئنا إلى «سيدي عبد الرحمن» في المرة السابقة دون أن يكون في ذهننا أي شيء عن أي مغامرة، ولكننا اشتركنا في مغامرة من أخطرِ ما مرَّ بنا.

محب: من يدري ... لعلنا لا نعود من هذه الرحلة بأيدينا فارغة؟

ومضَوا يتحدثون ... وظهر موزِّع الجرائد يحمل إليهم الصحف ... وأسرعَت «لوزة» ملهوفةً، وأخذت إحدى الصحف وانهمكت في قراءتها، وكذلك فعل «عاطف» و«نوسة».

وبعد لحظاتٍ قال «عاطف»: آسف جدًّا يا «لوزة»، ستدفعين الحساب ... وهو مَبلغٌ محترم، قد يعلِّمك ألا تندفعي في الحديث عن الألغاز والمغامرات بمناسبة وبدون مناسبة.

كانت «لوزة» تُخفي وجهها في الصحيفة. لقد بحثت جيدًا في جميع الصفحات، وبخاصةٍ صفحة الحوادث، دون أن تعثُر على كلمةٍ واحدة تُشير إلى اختفاء السيارة ... وأخذت «لوزة» تحسب ثَمن الكوكاكولا، ووجدته مَبلغًا باهظًا ... ولكن لم يكُن هناك بدٌّ من الدفع.

ووضعَت الصحيفة جانبًا ونظرت إلى المغامرين ... ووجدتهم جميعًا يبتسمون، فوضعَت يدها في جيبها وأخرجت ثمن الكوكاكولا، ثم وضعته على المائدة، وغادَرتها مُسرعةً.

نظر الأصدقاء إليها في دهشة ... ولكن «تختخ» وحده كان يفهم ... إنها حسَّاسة جدًّا ولا تُحبُّ أن تخسر معركة ... وهكذا قام هو الآخر خلفها — وبرغم سِمنته — فقد جرى مُسرعًا حتى لحِق بها وهي تمشي في الرِّمال ... وقال وهو يمدُّ يده يُمسِك بذراعها: ماذا جرى؟! إننا نتسلَّى ولا نتحدَّى!

التفتت إليه «لوزة» وقالت: صدِّقني أنا لستُ آسفة لأنني خسرت المعركة.

تختخ: أمنْ أجل النقود إذن؟

لوزة: أبدًا ... أبدًا ...

تختخ: فهمت.

لوزة: إنك دائمًا تفهمني.

تختخ: كنتِ تُريدين مغامرة.

لوزة: تمامًا.

تختخ: ستكون بين يدَيك مغامرةٌ مُدهِشة بعد قليل!

احمرَّ وجه «لوزة» الجميل وهي تقول: كيف عرفت؟

تختخ: ما دُمنا وحدنا فسأقول لك ... إنني أظن ...

ثم توقَّف عن الحديث، فقالت «لوزة»: تظنُّ ماذا؟

تختخ: لا داعيَ لأن أقول من الآن ... المسألة كلها دقائق وتعرفين.

لوزة: إنك تبدو أكثر غموضًا من المفتش.

تختخ: هيَّا بنا إليه ... لعلَّه قد استيقظ.

وسارا معًا على مهل ... يقِفان أحيانًا يرقُبان الشمس التي اقترب مَوعِد غروبها، أو يُلاحظان بعض الأطفال يلعبون الكُرة، أو بعض الكبار يتمشَّون وهم يضحكون ... ثم يُعاودان المسير.

وعندما اقتربا من الكشك، كانت في انتظارهما مفاجأة ...

لم يكُن المفتش موجودًا ... وقالت «لوزة» بضِيق: لقد انصرف المفتش؛ فهو ليس موجودًا في الشُّرفة!

تختخ: إنه لم ينصرف.

لوزة: كيف عرفتَ؟

تختخ: لأن باب الكشك مفتوح … ولو كان المفتش قد انصرف لأغلقه.

لوزة: أنت مُدهِش.

وفعلًا ظهَر المفتش خارجًا من الكشك وفي يده كوب الشاي، وعندما رآهما لوَّح لهما بيده من بعيد.

ووصلا إليه، وكان جالسًا يشرب الشاي، وعيناه تنظران بعيدًا في الفضاء. وقال «تختخ»: هل نِمتَ ما يكفي؟

المفتش: لقد ارتحت تمامًا … كنت في حاجة إلى هذه الساعة من النوم، وإلا سقطت من طولي.

تختخ: إنك لم تأتِ إلى «سيدي عبد الرحمن» للتنزُّه أو النوم!

المفتش: لا طبعًا.

تختخ: جئت تبحث عن …

المفتش: عن سيارةٍ اختفت بين ميناء «الحمراء» و«الإسكندرية»!

وأطلقت «لوزة» صرخةَ ابتهاجٍ عالية … والتفت إليها المفتش في دهشة … وابتسم «تختخ» …

هذا الجانب ... أو هذا الجانب

قال المفتش في دهشة: ما سرُّ ابتهاجك المُفاجئ يا «لوزة»؟

صاحت «لوزة» وهي تطبع قُبلةً سريعة على خد المفتش: إنني سأستردُّ ثمن الكوكاكولا.

زادت دهشة المفتش؛ لأنه لم يفهم شيئًا، فأسرع «تختخ» يقول: لقد سمِعت «لوزة» شخصَين يتحدثان عن اختفاء سيارة، ولما روَت لنا ما سمعت، سخِر منها «عاطف» كالمُعتاد، واتَّفقا على أن تكون الصُّحف هي الحكم بينهما ... إذا لم تنشر خبر اختفاء السيارة، دفعت «لوزة» ثمن خمس زجاجات كوكاكولا ... وإذا نشرت الخبر دفع «عاطف» الثمن ... ولم تنشر الصحف الخبر.

قال المفتش: إن الخبر صحيح ... ولكننا وجدنا أنه لمصلحة التحقيق إخفاء الخبر فترةً من الوقت.

تختخ: وهي تُخفي الخبر عنَّا أيضًا؟

فكَّر المفتش لحظاتٍ ثم قال: ليس بسبب خطورة المسألة، ولكن بسبب المساحة الواسعة من الأرض التي اختفت فيها السيارة ... إنها اختفت في مساحةٍ تبلُغ ١٥٠ كيلومترًا طولًا ... فأنتم لن تتمكَّنوا أبدًا من الاشتراك في البحث عنها.

تختخ: على الأقل نقدِّم بعض الاستنتاجات.

المفتش: سأقول لكم ... فأنتم موضع ثِقتي ... والمسألة ببساطةٍ أن إحدى الشركات المصرية تقوم بمسح الصحراء في هذه المنطقة، والبحث عن المعادن والبترول وغيرها، وذلك بواسطة مَعمل مُتحرك تحمله سيارة من طِراز «كينور»، وهذه السيارة يُمكِن أن تحمل بيتًا صغيرًا نظرًا لضخامتها.

وسكت المفتش لحظاتٍ ثم مضى يقول: ومنذ أسابيع عثَرَت الشركة على نوع من المعادن المُشعَّة ذات الأهمية العلمية ... ولست أُبالغ إذا قلت: إن هذا يُعتبر من أهم

الاكتشافات في بلادنا منذ زمنٍ بعيد ... وقام العلماء في المَعمل المُتحرك بتحليل العيِّنة، وتأكَّدوا من أهميتها ... وأمس الأول تحرَّكوا ليلًا في طريقهم إلى الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة، ولكن السيارة لم تصِل إلى الإسكندرية.

وهزَّ المفتش رأسه ومضى يقول: وأرسلنا عِدَّة دَوريَّات لاسلكية قطعت الطريق بين ميناء الحمراء والإسكندرية عِدَّة مرَّات للبحث عن السيارة، ولكن لم نجد لها أي أثر. وهي كما قلت لكما ليست سيارةً عادية، إنها سيارةٌ ضخمة جدًّا، ونادرة الطِّراز، واختفاؤها أمرٌ لا يمكن تصديقه ... إلا إذا كانت قد طارت في الهواء مثلًا، أو اختفت في الأرض ... وهما طبعًا فرضان مُستحيلان.

تختخ: إنها مشكلةٌ غريبة فعلًا.

المفتش: ونحن نقوم الآن بفحص المنطقة كلها من منطقة ميناء الحمراء حتى الإسكندرية، وذلك بالطبع أمرٌ غاية في الصعوبة ... فالمسافة واسعة جدًّا، وقد هبَّت الريح خلال اليومين الماضيين ... فأضاعت ما يمكن أن يوجد من آثار على الرِّمال ... بفرض أن السيارة دخلت في الرِّمال لسببٍ لا نعرفه.

كانت «لوزة» تستمع إلى حديث المفتش وذِهنُها اللمَّاح يعمل بسرعةٍ خارقة، ولكن اختفاء السيارة «الكينور» بَدا لها مُستحيلًا ... لو كانت سيارةً صغيرة لاختلف الأمر ... ولكن سيارة تحمل مَعملًا، وبها رجال، وتختفي هكذا دون أن تترك أثرًا ... مسألةٌ مُستحيلة!

تختخ: وهل انتشر الخبر في المنطقة؟

المفتش: إلى حدٍّ ما ... بدليل ما سمِعته «لوزة».

تختخ: ومتى كان تحرُّك السيارة؟

المفتش: تحرَّكت في حواليَ الساعة الثامنة مساءً لتصل إلى الإسكندرية قُرب الفجر.

قام المفتش واقفًا وهو يقول: هذه هي كل المعلومات التي لدينا، وسيجد المغامرون الخمسة أنها لا تؤدي إلى شيء.

قام «تختخ» و«لوزة» ومشَيا مع المفتش قليلًا حتى وصلوا إلى قُرب فندق «سيدي عبد الرحمن»، وودَّعاه، وعادا إلى الكشك الخشبي صامتَين، ولكن هذا الصمت تحوَّل إلى صخبٍ شديد عندما وصل بقيَّة المغامرين ... فقد قامت «لوزة» فورًا وقالت لـ «عاطف»: والآن ... عليك أن تدفع لي ثمن الكوكاكولا.

قال «عاطف»: ماذا تقولين؟!

لوزة: ادفع ثمن الكوكاكولا ... إن خبر اختفاء السيارة صحيح.

نظر «عاطف» إلى «تختخ» الذي قال مُبتسمًا: فعلًا لقد روى لنا المفتش قصة اختفاء السيارة، وهي قصةٌ مُدهِشة وشديدة الغموض. وما دام الخبر صحيحًا، فعليك أن تدفع ثمن الكوكاكولا لـ «لوزة».

وانضمَّ «محب» و«نوسة» إلى صفِّ «لوزة» ... ولم يكُن أمام «عاطف» إلا أن يدفع المبلغ، ثم أحاط المغامرون «تختخ» وطلبوا منه أن يرويَ لهم القصة كما سمِعها من المفتش.

أخذ «تختخ» يروي القصة ... وبين لحظة وأخرى كان يتوقف عن الحديث ... وتبدو عليه علامات التفكير، ثم يعود مرةً أخرى يروي.

وعندما انتهى من حديثه عاد يلخِّص الموقف في أربع نقاط رئيسية:

- السيارة الضخمة ماركة «كينور» ... عليها معمل تحاليل، وبه خمسة رجال.
- مساحة الأرض التي اختفت فيها السيارة نحو ١٥٠ كيلومترًا مربَّعًا.
- البحث لم يُسفِر عن وجودها في أي مكان.
- التحرُّك كان في الساعة الثامنة من قرب ميناء الحمراء، وهو ميناء صغير يُستخدم في تفريغ البترول.

سأل «محب»: ما هي السرعة العادية التي تتحرك بها سيارةٌ ضخمة بها معمل؟

فكَّر المغامرون لحظاتٍ ثم قال «تختخ»: أعتقد أن تكون بين ٤٠ إلى ٦٠ كيلومترًا لا أكثر.

وساد الصمت، وبدأت الشمس تلوِّن البحر باللون الأحمر وهي في طريقها إلى الغروب ... والريح تهبُّ باردةً مُنعِشة من البحر ... وعشرات من المصيِّفين يسيرون على الشاطئ يستمتعون بالمساء الجميل.

قالت «لوزة» فجأةً: ماذا تفعل؟

رد «عاطف»: لا شيء، إننا حتى لم نأتِ بالدرَّاجات معنا؛ ومعنى ذلك أنَّا لا يُمكِننا الحركة مُطلِقًا ... وحتى لو تحرَّكنا فأين نعثُر على السيارة إذا لم يكُن رجال الشرطة بكل ما يملكون من أجهزة وسيارات قد استطاعوا العثور عليها؟!

قالت «لوزة» مُتحمسةً: ليس من الضروري أن يكون عندنا أجهزة وسيارات لكشف غموض اختفاء السيارة ... إن الأجهزة الضرورية موجودة هنا.

وأشارت «لوزة» إلى رأسها.

قال «عاطف» ساخرًا: إن العلماء صنعوا أجهزة ... ولكن «لوزة» قاطَعَته قائلةً وقد أشارت مرةً أخرى إلى رأسها: إن المخَّ البشريَّ أعظم جهاز؛ لأنه من خَلقِ الله.

أحسَّ «عاطف» بالحرج وقال: معك حق. لقد أردت فقط ...

وقبل أن يُكمِل جملته قالت «نوسة»: إنني أرى شخصًا يتَّجه نحونا ... شخص لم نرَه من قبل.

التفت الجميع إلى حيث أشارت «نوسة»، وشاهَدوا رجلًا يقترب بنشاط منهم ... وعندما وصل إلى الباب حيَّاهم ... وقال: إن المفتش «سامي» سيكون بانتظاركم في تمام الساعة الثامنة لتتناولوا العشاء معه.

محب: في الفندق؟

الرجل: نعم ... في الصالة العُلويَّة!

ودعا الأصدقاء الرجل ليجلس قليلًا ... ولكنه اعتذر بأدب، ثم غادَرهم مُسرِعًا.

نظرَت «نوسة» إلى ساعتها وقالت: الساعة الآن السابعة ... أمامنا ساعة لتغيير ملابسنا.

وبدأ المغامرون يستعدُّون للذهاب إلى الفندق الضخم ... وفي الثامنة تمامًا كانوا يدخلون الصالة الواسعة في الفندق، وكان في استقبالهم المفتش، وموسيقى خفيفة هادئة ...

وكان عددٌ كبير من رُوَّاد الفندق يتناولون عشاءهم ويضحكون، والجوُّ كله يُوحي بالراحة والسكينة ... ولكن المغامرين الخمسة كانوا يُفكرون في شيءٍ آخَر.

وجاءتهم قائمة الطعام فاختاروا منها ما شاءوا ... وبدءوا يتحدثون عن الجو الجميل في «سيدي عبد الرحمن». وقال «تختخ»: لقد جئنا من قبل ... ولكن الجو هذا المَوسم أفضل.

المفتش: الحقيقة كنتُ أتمنَّى أن آتيَ هنا للراحة من العمل، ولكنِّي جئت في عمل.

قالت «لوزة» بخبث وهي تبتسم: ولكنِّي أراك الآن أكثر انتعاشًا.

ابتسم المفتش ومدَّ يده يُمسِك ذقنها وقال: إنكِ غاية في الذكاء!

قالت «لوزة» وابتسامتها تتَّسع: هل يمكن أن أعرف لماذا تبدو في حالةٍ أفضل الآن؟

ضحِك المفتش بصوتٍ مُرتفع وقال: ألا يستطيع الإنسان أن يُخفيَ شيئًا عنك؟!

ثم انحنى إلى الأمام وقال: هناك أنباءٌ مشجِّعة؟

بدا الاهتمام على المغامرين، فقال المفتش: لقد فحصنا الطريق كما قلت لكم، ولم يكُن هناك شيءٌ يدلُّ على اختفاء السيارة!

لوزة: وهل وجدتم الآن شيئًا؟

المفتش: لا ... ولكن وصلنا إلى تحديد المسافة التي لا بد أن تكون السيارة قد اختفت فيها ... أنتم تعرفون أن هناك نُقطًا للتفتيش في «سيدي عبد الرحمن» و«العَلمين»، ثم في «العَجمي» قبل دخول الإسكندرية، وقد تأكَّدنا من نقطة تفتيش «العجمي» أن السيارة لم تمرَّ عليها ... فهي إذن قد اختفت في المسافة بين «العلمين»، وهي آخر نقطة مرَّت بها السيارة في التاسعة مساءً ... وبين «العجمي» ... والمسافة محدودة، ويمكن البحث فيها ... ولكن ...!

سألت «لوزة» بلهفة: ولكن ماذا؟

حقول الموت

فكَّر المفتش لحظاتٍ ثم قال ردًّا على سؤال «لوزة»: في هذه المنطقة على يمين السائر في الطريق إلى الإسكندرية ... توجد أكبر منطقة ألغام في العالم ... ويُطلِقون عليها اسم غابة الألغام أو حقول الموت، وهي ممتدَّة من ميناء «الحمراء» إلى «العلمين» على امتداد حوالَي ٤٠ كيلومترًا ... وهي حقول ألغام مُتخلفة من الحرب العالمية الثانية ... في أثناء الصِّراع الذي دار بين قوات الألمان بقيادة «روميل» من ناحية ... والقوات الإنجليزية بقيادة «مونتجمري» من ناحيةٍ أخرى ... وقد ضاعت خرائط الألغام وبقِيَت هذه المنطقة من أخطر مناطق العالم ... ولا يمكن الدخول إليها ...

قال «محب»: ومعنى ذلك أن السيارة لا يمكن أن تكون قد دخلت فيها!

المفتش: تمامًا ... ويكون أمامنا الجانب الآخَر من الطريق ... أي على يسار الذاهب إلى الإسكندرية ... وهذا عبارة عن شريطٍ ضيِّق من الساحل به رِمال لا يمكن أن تسير فيها سيارة، إلا السيارات الخفيفة من طِراز «جيب» ... أما سيارة طِراز «كينور» تحمل مَعملًا كاملًا وخمسة رجال ... فمُستحيل!

تختخ: شيءٌ مُدهِش!

المفتش: جدًّا ... ولكن حصر البحث منطقةً محدودة — مهما كان إخفاء السيارة فيها مُستحيلًا — معقولٌ أكثر من البحث في مناطق شاسعة لا أول لها ولا آخِر.

نوسة: إن المهمة صعبة في جميع الأحوال يا سيادة المفتش!

المفتش: فعلًا يا «نوسة» مهمةٌ صعبة ... ولكنَّا بدأنا نفحص المنطقة شبرًا شبرًا، ولو وجدنا أي دليل فلن يكون العثور على السيارة مشكلة؛ فهي ليست إبرة، إنها ضِعف حجم الأتوبيس!

وجاء العشاء وانهمك الأصدقاء في الأكل، وقد بَدت الصورة تدور في رءوسهم … السيَّارة الضخمة تخرج من ميناء الحمراء ليلًا، وبعد فترة لا تزيد عن ساعتَين تختفي … كيف؟

وفجأةً قالت «لوزة»: لقد سألت «تختخ» عن سرعة السيارة «الكينور» فقال: إنها ربَّما تسير بسرعة بين ٤٠ إلى ٦٠ كيلومترًا في الساعة.

المفتش: لا أكثر من ٤٠ كيلومترًا لوجود المعمل … فقد سألنا الشركة التي تَتبَعها السيارة السؤال نفسه.

لوزة: في هذه الحالة من الممكن تحديد الوقت الذي اختفت فيه السيارة.

المفتش: تمامًا يا «لوزة» … وقد فعلنا ذلك.

لوزة: ومتى كان وقت الاختفاء؟

المفتش: بين الساعة التاسعة والتاسعة وخمس عشرة دقيقة تقريبًا … فنحن لا نعرف السرعة التي سارت بها السيارة بالضبط!

وعلى صوت الموسيقى الهادئة مضى المغامرون يأكلون … وتقدَّم أحد الأشخاص وهمس في أُذُن المفتش «سامي» بكلمات، فقام واقفًا واستأذن من الأصدقاء، وشاهَدوه يتَّجه إلى التليفون … وعاد بعد لحظات قائلًا: أرجو أن تُتمُّوا عشاءكم … فإنني مضطرٌّ للسفر فورًا.

تختخ: ألَا تعود قريبًا؟

المفتش: لا أدري، لقد حدَّثني مُدير الأمن العام، وطلب مني العودة إلى القاهرة.

وانصرف المفتش على الفور، ومضى الأصدقاء يُكمِلون عشاءهم، وقد استغرقوا في خواطرهم.

عندما كانوا في طريقهم إلى الكشك الخشبي … كان الظلام يَفرش الصحراء والبحر …

وقال «محب»: يا لها من ليلة للسهر.

ولكن «تختخ» ردَّ قائلًا: سننام مبكِّرين … فسوف نستيقظ في الفجر!

محب: للصيد؟

تختخ: نعم … ولكن ليس لصيد السمك … سنبحث عن صيدٍ أكبر!

فهِمت «لوزة» ما يعني «تختخ»، وقالت: هل نتدخَّل؟

تختخ: طبعًا … إنها من المغامرات التي تستهويني … فكلُّ شيء يبدو غريبًا وغامضًا، وهذا يبعث على التحدِّي.

وفعلًا استيقظوا قبل طلوع الشمس، وقال «تختخ» وهم يلبسون ثيابهم: نريد إفطارًا ثقيلًا ... فلسنا نعرف متى نأكل مرةً أخرى!

عاطف: إن هذا يُشبِه عادة الحيوانات في الغابة!

محب: أو الجنود في الحرب ... كُلِ الآن؛ فلست تعرف متى تأكل المرة القادمة.

وفتحت «نوسة» بعض عُلَب الفول المدمَّس ... وكان «محب» يَقلي البَيض ... و«لوزة» تُعدُّ المائدة، وكالمُعتاد كان «عاطف» لا يفعل شيئًا ... ولكن كان أول من يجلس إلى المائدة.

وغادَروا الكشك وضوء الشمس يبدو بعيدًا في الأفق، وأخذوا معهم «زنجر» وساروا مُسرِعين، ووِجهتُهم كما قال «تختخ» قريةُ «العلمين» ... وكانوا بالطبع يعرفون طريقها جيدًا؛ فقد سبق أن جاءوا إلى المكان نفسه في «لغز شاطئ السموم».

وعندما وصلوا إلى السوق كانت الحياة قد دبَّت في القرية الصغيرة، وكان القِطار القادم من «مرسى مطروح» يقف في مكانه ... وقوة من رجال الشرطة تُحيط به كالمُعتاد للتفتيش ...

لم يتوقَّف الأصدقاء أمام هذا المشهد طويلًا ... وكان «تختخ» يسير في المقدمة، فاتَّجه على الفور إلى حيث تقف عشرات الحمير التي يأتي بها القَرويُّون محمَّلةً بالخُضَر والفاكهة، وشمِل المكان بنظرةٍ سريعة، ثم تقدَّم من أحد الرجال وقال له: نريد أن نستأجر خمسة حمير ...

الرجل: خمسة مرةً واحدة؟

تختخ: نعم.

الرجل: ليس عندي إلا ثلاثة، وسآتي لكم باثنين من «حماد».

ولم يكُن «حماد» إلا ولدًا صغيرًا ... أقبل مُسرعًا يقود حِمارَيه، وأخذ يُجادل كرَجلٍ كبير فيما سيدفعه الأصدقاء ... ثم قال في النهاية: إنني لا أستطيع ترك الحِمارَين وحدهما ... لا بد أن أذهب معكم.

وافَق «تختخ» على الشرط مُتحمسًا ... فقد كان يريد دليلًا معهم يعرف المنطقة جيدًا ... فهم هنا لا يسيرون في شوارع المعادي ... إنهم يسيرون في شوارع الألغام ... حيث يصبح أي خطأ معناه الموت ...

وبدأت القافلة سيرها ... ستة حمير في خطٍّ واحد طويل على جانب الطريق الأيمن ... في المقدمة «حماد»، بعده «تختخ»، ثم «نوسة»، ثم «لوزة»، ثم «عاطف»، ثم «محب» ... أما «زنجر» فقد كان يجري من أول القافلة إلى آخرها ... سعيدًا فرِحًا بهذه الرحلة غير المتوقَّعة في هذا الجوِّ الصَّحو ...

تجاوَزت القافلة منطقة المساكن ... وبدأت تسير في الخلاء ... على الجانبَين كانت الصحراء تمتدُّ يمينًا حيث حقول الألغام ... واسعةً لا نهاية لها ... فهي بداية الصحراء الكبرى ... ويسارًا الشريط الضيِّق من الرِّمال الذي يفصل الطريق الأسفلت عن البحر.

كان «محب» يسير في آخِر القافلة يفكِّر فيمَ يبحثون الآن ... لقد فحص رجال الشرطة هذه المنطقة أمس الأول وأمس، وربما اليوم، دون أن يعثروا للسيارة على أثر ... لا على اليمين حيث توجد حقول الألغام ... ولا على اليسار حيث الشريط الضيِّق من الصحراء لا يُخفي سيارة ... ولا حتى عنزًا ...

برغم هذه الخواطر كان «محب» سعيدًا ... فهي رحلةٌ غير عادية لهدفٍ غير عادي في يومٍ جميل.

وتقدَّم «تختخ» بحماره الأسود حتى «حماد»، وقال له: هل تعرف هذه المنقطة جيدًا يا «حماد»؟

ردَّ «حماد» برجولةٍ تَسبق سِنَّه الصغير: لقد وُلدتُ هُنا، وتعلَّمت المشيَ في هذه المنطقة؛ فأنا أعرفها شبرًا شبرًا ... أعرف غابة الشيطان!

قاطَعه «تختخ» قائلًا: غابة الشيطان؟!

حماد: نعم ... نحن نُسمِّيها غابة الشيطان ... فلم يدخلها شخص وعاد منها حيًّا أبدًا ... حتى أبي.

تختخ: أبوك أنت؟

حماد: نعم، لقد كان أبي خيرَ من يعرف الصحراء وغابة الشيطان، برغم هذا نسَفه لغمٌ من الألغام ذات يوم ...

غيَّر «تختخ» مَجرى الحديث سريعًا وقال: هل سمِعت عن السيارة التي اختفت في هذه المنطقة منذ يومَين؟

حماد: طبعًا، فلا شيء يحدُث هنا لا نعرفه ... بل إنني أعرف السيارة؛ فقد قضت نحو ستة أشهُر تتجوَّل بالمنطقة ... وكثيرًا ما أحضرت للرجال الأطعمة من القرية ... وخاصَّةً اللبن والخضروات.

شجَّعَت «تختخ» هذه المعلومات وقال: إننا نبحث عن هذه السيارة يا «حماد»!

حماد: أنتم؟

تختخ: نعم ... فنحن من أصدقاء الشرطة، ونريد أن نُساعد في العثور على السيارة.

ومضى «تختخ» يقول: لو استطعنا أن نعثُر على أثرٍ واحد يدلُّ على مكان السيارة، فتأكَّد أن رجال الشرطة سوف يُعطونك مكافأةً سخيَّة.

تحمَّس «حماد» وقال: وما هو المطلوب مني بالضبط؟

تختخ: نريد أن نستخدم معلوماتك عن المنطقة ... إن السيارة لم تَطِر في الهواء، ولم تَغُص في الأرض ... ولم تتجاوز منطقة «العلمين» ... فأين ذهبت؟!

لم يردَّ «حماد» ... فمضى «تختخ» يقول: إن رجال الشرطة بحثوا في الجانب الأيسر ... ولا أدري هل فكَّروا في البحث في الجانب الأيمن، حيث لا يستطيع أحدٌ أن يدخل حقول الألغام ... أم لا!

حماد: إن دخول السيارة في غابة الشيطان معناه نسفُها في ثانيةٍ واحدة ... ولو نُسِفت لرأينا آثارها ... وسمِعنا صوتها ... إن هذا مُستحيل!

تختخ: وأنا ... أبحث عن المُستحيل ... إنني لسببٍ لا أدريه أعتقد أن المُستحيل في بعض الأحيان هو الشيء الوحيد المعقول.

ولم يردَّ «حماد»، وساد صمتٌ لا يقطعه سوى صوت حوافر الحمير على الطريق ... وفكرة «تختخ» المُلحَّة تدور في ذهنه ... هل يعثُر رجال الشرطة على السيارة قبلهم ... أو سيسبقون هم رجال الشرطة! وهل هناك طريقٌ ثالث لخطف السيارة لم يُفكروا فيه؟!

كانت الصحراء الصامتة تمتدُّ أمامهم وبجِوارهم ... مُنبسِطة بلا نهاية ... والسيارات القادمة من الإسكندرية والذاهبة إليها تطير مُسرعةً ... و«تختخ» يفكِّر كيف يمكن خطف سيارة في مِثل هذا المكان!

شيءٌ يحدُث فجأةً

كانت خُطة «تختخ» بسيطة ... ولكن خطرة ... إنه متأكِّد أن رجال الشرطة قد فحصوا الجانب الأيسر من الطريق المُوازي للبحر ... وهو شريط من الأرض يبلُغ عرضه بين ثلاثة كيلومترات وخمسة، شريطٌ واضح مُنبسط، ليس فيه مكانٌ تختفي فيه سيارةٌ ضخمة ... إذن فالسيارة قد أُخفيَت في منطقة الألغام، وهي منطقةٌ خطرة؛ لأن هذه الألغام وُضِعت في أثناء الحرب العالمية الثانية بواسطة الألمان والإنجليز والإيطاليين، وضاعت خرائطها، ولم يعُد من الممكن معرفة أماكنها.

ولكن «تختخ» كان يعرف شيئًا مهمًّا ... إن بعض أجزاء من هذه الأرض قد طُهِّرت من الألغام ... وهي منطقةٌ واسعة لا نهاية لها ... يمكن إخفاء السيارة خلف تِلالها الرملية العالية ... فهل فكَّر رجال الشرطة فيما فكَّر فيه «تختخ»؟ وهل استدعاء المفتش «سامي» له علاقة باختفاء السيارة؟ وهل ينتظرون حتى يحضر رجال الشرطة؟!

كان «تختخ» يفكِّر في كل هذا، والحمار يمضي به هادئًا، وفجأةً سأل «حماد»: هل تعرف المناطق التي طُهِّرت من الألغام؟

رد «حماد»: طبعًا ... أعرف أكثر المناطق ... فقد اشتركت مع أبي ومع عددٍ كبير من الرجال في نزع الألغام.

تختخ: أنت تعرف كيف تنزع لغمًا؟

حماد: طبعًا ... ولكنه يحتاج إلى حذرٍ شديد ... فأي خطأ يمكن أن يؤدِّيَ إلى الموت.

تختخ: إنني لن أطلب منك أكثر من أن تدلَّنا على الأماكن التي انتزعت منها الألغام.

حماد: مسألةٌ بسيطة وسهلة ... إننا مُقبِلون على منطقةٍ أُخليَت منها الألغام ... وسنجد علاماتٍ تدلُّ على هذه الأماكن!

ومضت القافلة وقد ارتفعت الشمس في السماء، وفجأةً توقَّف «حماد» وأشار إلى منطقةٍ مُستطيلة من الأرض، وقال: هذه المنطقة أُخليَت من الألغام منذ أكثر من سنة!

ورفع «تختخ» يده إلى فوق إشارةً لمن خلفه بالتوقُّف، ثم نزل، ونزل بعده المغامرون، وطلب «تختخ» بعض قِطع الطُّوب، ورصَّها على الأرض على شكل رقم ١، ثم قال: سنعلِّم بقيَّة المناطق بالأرقام لنعرف أين الألغام وأين المناطق الخالية.

ومضت القافلة، وبين مسافة وأخرى كان «حماد» يُشير بيده، وكان «تختخ» يقوم بوضع قِطع الحجارة ... وعندما ارتفعت الشمس في وسط السماء واشتدَّت الحرارة ... قرَّر «تختخ» أن يعودوا بعد أن قاموا بترقيم خمس مناطق خالية من الألغام.

عندما وصلوا إلى الكشك الخشبي، قال «تختخ» مُوجهًا حديثه إلى «حماد»: هل تأتي غدًا لإكمال العملية؟

رد «حماد»: لا أستطيع الحضور صباحًا ... عصرًا ممكن.

وأسرع «حماد» بحميره عائدًا ... ودخل المغامرون الكشك ... وكان واضحًا أن ركوب الحمير أتعبَهم ... وكان أول من اشتكى «تختخ» الذي استلقى على ظهره يتأوَّه قائلًا: لقد أتعبني ركوب الحمار للغاية.

ردَّ «عاطف»: وماذا يقول الحمار إذا سمِعك؟ ... إنه بالتأكيد قد تعِب أكثر منك.

ضحِك الأصدقاء طويلًا ... وهم يتناوبون دخول الحمام يغتسلون، ثم انهمكوا جميعًا في إعداد الطعام؛ فقد فتحت الرحلة شهيَّتهم، وخاصةً أنهم قد عثروا على لغزٍ يحلُّونه، ومغامرةٍ مُثيرة يعيشون أحداثها.

وفي المساء عقَد المغامرون الخمسة أول اجتماع لهم ... وجلسوا أمام الكشك يتحدَّثون. قال «محب»: أعتقد أنني فهِمت خُطتك يا «تختخ».

تختخ: وأظنُّ أنها الخُطة الوحيدة المعقولة ... برغم خطورتها.

محب: ولكن ألا تظنُّ أن رجال الشرطة قد فكَّروا التفكير نفسه؟

تختخ: من المحتمل جدًّا ... ولعل عودة المفتش «سامي» لها علاقة بذلك، وعلى كل حال ... سينفِّذون هم خطتهم ... وسننفِّذ نحن خطتنا.

قالت «لوزة»: إنني فهِمت خطتك أيضًا يا «تختخ»؛ فأنت تتصور أن الذين خطفوا السيارة قد أدخلوها خلال منطقة خالية من الألغام.

تختخ: بالضبط ... فالصحراء بعد ذلك متَّسعة جدًّا، وحافلة بالمُرتفَعات والمخابئ التي تصلُح لإخفاء السيارة.

لوزة: لكن هناك نقطة هامَّة ... إننا لم نرَ أثر السيارة في أي مكان منها ...

تختخ: معك حق ... ولكن من الممكن أن تكون الآثار قد أُزيلت ... كما أن هناك مناطق لم نرَها بعد.

نوسة: وهناك نقطةٌ ثانية ... كيف يمكن خطفُ سيارة بهذا الحجم؟! إنها عمليةٌ غير عادية.

تختخ: على كل حال سوف نمضي في خطتنا ... إما أن نصل ... أو يصل رجال الشرطة قبلنا ... أو يبقى خطف السيارة لغزًا بلا حل.

وساد الصمت ... واقترب المساء سريعًا ... وكان تعبُ الرُّكوب قد أنهَك أجسامهم ... فتسلَّلوا واحدًا وراء الآخر ... واستسلموا للنوم مبكِّرين.

انقضى الصباح بين البحر ... والجلوس في شُرفة الكشك، وقُرب العصر كان «حماد» الصغير قد حضر ... ولم يكُن معه سوى أربعة حمير فقط ... وقال وهو يعتذر: لم أستطع تدبير بقيَّة الحمير.

تختخ: لا بأس ... سيذهب ثلاثة منَّا ويبقى اثنان.

لوزة: إنني مع الذاهبين!

نظر المغامرون بعضهم إلى البعض الآخر، وقال «عاطف»: هل هناك رحلةٌ أخرى غدًا؟

رد «حماد»: طبعًا ... فلن نستطيع زيارة كل الأماكن التي طُهِّرت منها الألغام في يوم أو في أسبوع.

عاطف: انتظري للغد إذن يا «لوزة» أنت «ونوسة»، وسوف تُتاح لكما فُرصٌ أخرى للاشتراك في البحث.

لوَت «لوزة» وجهها غير راضية ... ولكنها في النهاية وافَقَت ... وسُرعان ما كانت الحمير الأربعة تنطلق ... واستعدَّ «زنجر» للانطلاق خلفها ... ولكن «تختخ» صاح به: ابقَ مكانك يا «زنجر»!

ولوى «زنجر» ذيله وبَدا غير سعيد ... ولكن التعليمات كانت واضحة ... أن يبقى في حراسة «نوسة» و«لوزة». وهكذا قبع بجوار الكشك ... وابتعدت القافلة مُسرعةً.

بعد ساعةٍ وصلوا إلى منطقة الألغام مرةً أخرى ... وشاهَدوا العلامات التي وضعها «تختخ» وانطلقوا بعدها ... وسُرعان ما كانوا يضعون مجموعةً أخرى من الأرقام في الأماكن

التي خلَت من الألغام ... وشيئًا فشيئًا بَدَت ريحٌ قوية تهبُّ ... تحمل معها حبَّات الرمال ... وتحوَّلت بعد قليل إلى عاصفةٍ رملية.

وقال «حماد»: لنُسرِع بالعودة.

وأخذَت الحمير تجري على الطريق المرصوف مُسرعةً ... ولكن العاصفة كانت أسرع ... فسُرعان ما تحوَّل الأفق إلى اللون الأصفر ... ثم الأحمر، ثم مال إلى السواد ... وتعذَّرَت الرؤية ... وأخذ المغامرون يتمايلون فوق الحمير ... وقال «تختخ» بأعلى ما يملك من صوت: لنتوقَّفْ في مكاننا بعض الوقت حتى تهدأ العاصفة.

كانوا قد اقتربوا من المنطقة رقم ٥ الخالية من الألغام، وكان هناك بعض المرتفعات الصخرية والأشجار الصحراوية التي يمكن أن يجلسوا بجوارها ... فنزلوا وأسرعوا يجرُّون الحمير معهم إلى حيث يُمكِن الاختباء ... ووجدوا صخرةً ضخمةً أشار إليها «حماد»، فأسرعوا جميعًا إليها ... وكانت العاصفة قد بلَغت ذروة قوَّتها، وأخذت تجذبهم إلى الخلف ... وأفلتَ الحمار الذي يُمسِكه «عاطف» وأخذ يبتعد تدريجيًّا، و«عاطف» يريد أن يلحق به ... ولكن الحمار اختفى وراء عاصفة الرمال العاتية ... ووصلوا إلى الصخرة الضخمة، ولحُسنِ الحظ كان فيها تجويفٌ يسمح لهم بالالتجاء إليه هربًا من عصف الرياح المُخيف.

وفجأةً وهم يجلسون بجوار الصخرة، دوَّى انفجارٌ رهيب، وصاح «حماد»: لغم.

صاح «تختخ» مُستفسرًا: أليست هذه منطقةً خالية من الألغام؟

حماد: طبعًا ... إنني متأكِّد.

تختخ: ماذا حدَث إذن؟

محب: لا بد أن حمار «عاطف» وصل إلى منطقة ألغام.

حماد: ولكن منطقة الألغام تبعُد مسافةً طويلة، ولا يمكن أن يكون الحمار قد وصل إليها في هذه الفترة القصيرة!

وفجأةً خطر لـ «تختخ» خاطرٌ رهيب ... وصاح بالأصدقاء: لا يتحرك أحد من مكانه ... نحن مُحاصَرون.

عاطف: مُحاصَرون بأي شيء؟

تختخ: بالألغام.

حماد: لا يمكن!

تختخ: لقد أنقذَتنا العنايةُ الإلهية حتى الآن!

حماد: إنني لا أفهم شيئًا!

تختخ: سأشرح لكم كل شيء بعد أن تسكُن العاصفة!

ولكن العاصفة لم تسكُن ... بل مضت الرياح تقصف بشدة ... والرمال تدور وتلفُّ في الفضاء ... وهبط الظلام سريعًا على المنطقة ... وقد اختفى كل شيء، وأحسَّ المغامرون الثلاثة أن الأمور تسير من سيِّئ إلى أسوأ؛ فقد أصبحوا سُجناء العاصفة ... والرمال ... والألغام!

ليلة الأهوال

كان ذِهن «تختخ» يعمل بسرعة ... إنهم في مأزقٍ حقيقي ... فهم لا يستطيعون العودة إلى الطريق المرصوف ... ومن يدري ... لعلهم يعثُرون بلغم بعد أن اتَّضح أن المنطقة ليست خالية من الألغام ... وكان يسأل نفسه هذا السؤال: هل «حماد» مُخطئ، أم إن هناك شيئًا غير عادي قد حدَث في هذا المكان؟!

كان صوت الريح مُرعبًا ... وكان «حماد» يُمسِك بالحمير الثلاثة الباقية، وهي قلِقةٌ تريد أن تنطلق ... ومضت فترةٌ طويلة دون أن يبدوَ أن العاصفة ستهدأ مُطلَقًا ... وأكثر من هذا أن بدأت أصوات الذئاب تأتي من بعيد أولًا ... ثم بدأت تقترب ... وأخذ المغامرون يلتصق بعضهم ببعض في ظل الصخرة ... وهم جميعًا يفكِّرون أنهم لم يُواجهوا مأزقًا في حياتهم بهذا الشكل ... فهم مُحاصَرون تمامًا بالخطر من كل مكان.

وباقتراب عُواء الذئاب زاد هِياج الحمير الثلاثة، وأخذت تجذب «حماد» خارج المخبأ الذي يحميهم من عصف الريح المُخيف ... وقبل أن يتبيَّن المغامرون ما يحدُث ... اختفى حماد ... جذبته الحمير الثلاثة ... واختفى في العاصفة!

صاح «محب»: يجب أن نخرج خلفه.

عاطف: أين نذهب؟ إننا لن نجده مُطلَقًا.

محب: إنه معرَّض لخطر الموت.

ولم يكَد «محب» ينتهي من جملته حتى دوَّى انفجارٌ رهيب ... وشاهَد المغامرون وهَج النيران المُفاجئ ... وعرفوا أنه لغم قد انفجر ... وربما كان الضحيَّة «حماد» أو أحد الحمير الثلاثة ... وقام «محب» واقفًا واندفع كالمجنون خارجًا من المخبأ ... ولكن «تختخ» مدَّ قدمه في طريقه فتعثَّر فيها وسقط على وجهه، وقام «تختخ» مُسرعًا وصاح: هل أنت مجنون؟! إن خروجك لن يُنقِذ «حماد»، وقد تموت أنت!

قام «تختخ» و«عاطف» بسحب «محب» إلى داخل المخبأ ... ومضت العاصفة تدوِّي ... ثم سمِعوا صوت انفجار ثانٍ أبعَد من الأول ... ولمع وهج النيران من بعيد ... وصاح «محب»: إنني أُشاهد أشباحًا تتحرَّك!

لم يفقد «عاطف» روح الفُكاهة في هذا المأزق الرهيب، وقال: إنني أُحسُّ كأننا نخوض معركةً حربية ... ألغام ... وأشباح ... لم يبقَ إلا دبَّابة أو طائرة ... أو نقع أسرى حرب.

وبالطبع لم يكن هناك وقت للضحك ... وظهَر في هذه اللحظة شبحٌ يجري، ثم ألقى بنفسه وسط المغامرين ... قفز «محب» على الشبح ... ولكن الشبح لم يكن سوى «حماد» الذي قال بصوتٍ لاهث: هناك أشخاصٌ يتحرَّكون في المنطقة.

محب: هل تعرفهم؟

حماد: لا ... إنهم على ما أظنُّ غُرباء، ولكن المُدهِش أنهم يتحرَّكون دون خوف من الألغام.

تحدَّث «تختخ» الذي ظلَّ صامتًا فترةً طويلة قائلًا: لقد عرفت من البداية أن هناك أشخاصًا زرعوا ألغامًا حديثة في هذا المكان ... وأن هذا مُرتبط باختفاء السيارة!

حماد: لا أدري كيف حدَث هذا ... إنني مُتأكدٌ أن هذا المكان كان خاليًا من الألغام، لقد تجوَّلنا فيه عشرات المرَّات، ورعَيت فيه الغنم أيضًا ...

تختخ: لقد حللت لغز اختفاء السيارة منذ انفجر أول لغم، ولكن المهم كيف ...

ولم يُتمَّ «تختخ» جملته؛ فقد ظهَر شبح رجل في الظلام يحمل مدفعًا رشَّاشًا، واقترب منهم ... وسكت الأصدقاء تمامًا ... واقترب الرجل أكثر وأكثر. كانت العاصفة قد هدأت نسبيًّا ... وبدَت من بعيدٍ أضواء النجوم، وأصبح في إمكان الأصدقاء مشاهدةُ ما يحدُث حولهم ... واقترب الشبح من مكانهم تمامًا ... وبدَت قدماه واضحتَين في بداية المخبأ، وفجأةً انقضَّ «محب» على القدمَين، وجذبهما بشدة، وسقط الشبح، وسقط من يده المدفع السريع الطلقات ... وانقضَّ «تختخ» على المدفع، ولكن الشبح أو الرجل مدَّ يده وأمسك بقدم «تختخ»، واشتبك الاثنان في صِراعٍ مُميت، وتدحرجا خارج المَخبأ.

وفي هذه اللحظة ظهَر ثلاثة رجال ... يحملون أسلحة، ووجَّهوا ضوءًا ساطعًا من كشَّاف على المكان ... وصاح أحدهم: لا يتحرَّكْ أحد.

وتوقَّف الصراع بين «تختخ» و«الشبح»، وعاد الرجل يقول: من أنتم؟ وماذا تفعلون هنا؟

لم يردَّ أحد، فقال الرجال بصوتٍ غاضب: إذا لم تتحدثوا فسأُطلِق الرصاص عليكم جميعًا!

قال «حماد»: لقد كنَّا نتنزَّه على ظهور الحمير في هذه المنطقة ... وقد كنت مُتأكدًا أنها خالية من الألغام ... ولكن ...

قال الرجل في خشونة: اخرجوا جميعًا إلى هنا.

وخرج المغامرون الثلاثة و«حماد» ... ودار حديث بين الرجال الثلاثة بلُغةٍ أجنبية لم يفهم الأصدقاء منها شيئًا، ثم قال الرجل: ستأتون معنا.

وتحرَّك «تختخ» و«محب» و«عاطف» و«حماد»، وسار الرجال الثلاثة خلفهم ... وسار الرابع أمامهم. وقال الرجل الذي يتحدث اللغة العربية: سِيروا خَلْفي تمامًا وإلا انفجرَت فيكم الألغام.

سار الأصدقاء خلف الرجل الذي كان يُطلِق شعاعًا من بطاريته على الأرض، ويختار مكان قدمَيه بعناية ... ولاحَظ الأصدقاء أن رَجلَين من الرجال الثلاثة الذين يسيرون خلفهم قد تخلَّفا، ولم يبقَ سِوى الذي يتحدَّث العربية.

مضَوا يسيرون حتى هدأت العاصفة تمامًا ... ومرُّوا بعدد من الدبَّابات القديمة المتخلِّفة عن الحرب ... ثم انحرفوا خلف سلسلة من الكُثبان الرملية العالية.

استمرُّوا يسيرون فترةً تزيد على نصف الساعة، حتى وجدوا أنفُسهم فجأةً ينحرفون خلف مجموعة من التِّلال ... واشتدَّ الظلام ... وبهدوءٍ شديد انسلَّ «تختخ» جانبًا، وألقى نفسه على الرمال، وتدحرج بحذر حتى وجد حفرةً صغيرةً عميقة، نزل فيها وقبع في مكانه ساكنًا. وقد فعل ذلك دون خوف؛ فهو يعرف أن التِّلال خالية من المُفرقَعات ... وسمِع بعد لحظات أصواتًا غاضبة ... وأدرك أنهم اكتشفوا هربه، وأنهم سيبحثون عنه.

كان يلبس قميصًا أبيض اللون، وبنطلونًا رماديًّا ... فخلع القميص مُسرعًا؛ فمن السهل رؤية اللون الأبيض في الظلام ... ثم حفر الرمال وأخفى القميص ... وجلس ساكنًا مكانه.

أخذت أضواء البطاريات تطوف بالمكان ... وتقترب أحيانًا منه، وأصبحت على بعد سنتيمترات قليلة ... ولكنه ظلَّ هادئًا في مكانه لا يأتي بحركة ... وسمِع الرجل الذي يتحدَّث اللغة العربية يسبُّ ويلعن ويقول: لقد هرب ... ولكنه على كل حال لن يُغادر المنطقة؛ فسوف ينسفه أحد ألغامنا!

كانت كلمة ألغامنا كافية جدًّا لتأكيد فكرة «تختخ» عن كل ما حدث ... إن المنطقة ٥ كانت خالية من الألغام فعلًا، وقد استطاع هؤلاء الرجال اختطاف السيارة وإدخالها هذه المنطقة ... ثم بعد ذلك بثُّوا الألغام فيها بحيث يصعُب مطاردتهم.

لقد لمعت هذه الفكرة في رأسه منذ قيامهم أمس برؤية المنطقة ... فالشريط الساحلي لا يصلُح لإخفاء السيارة ... والصحراء حافلة بالألغام، والخطة الوحيدة المعقولة هي إدخال السيارة من أحد المناطق الخالية من الألغام ... ثم تلغيم هذه المنطقة بعد ذلك ... خطةٌ بسيطة ... ولكنها تحتاج إلى دهاءٍ شديد، وإمكانياتٍ كثيرة ... فكيف يمكن تسيير السيارة فوق الرمال دون الغوص فيها؟! ... وسُرعان ما تذكَّر «تختخ» أنهم كانوا يسيرون على أرضٍ رملية، فكيف يمكن تسيير السيارة على الأرض الرملية؟! ... هل السيارة مجهَّزة لهذا الغرض باعتبارها سيارة أبحاث ... أم إن هناك خطةً أخرى لا يعرفها؟!

سمِع أصوات الرجال تبتعد، فأسرع يخرج من مَكمنه ليسير خلفهم ... إنه لا يستطيع أن يتجوَّل وحده في المكان ... وإلا نسفه لغم فعلًا ... وهكذا أسرع يسير خلف الرجل الأخير مُحتفظًا بمسافة بينه وبين الرجل، وإن كان واثقًا أنه لا يمكن أن يسمع خطوه على الرمال.

ساروا نحو نصف ساعة ... ثم انحرفوا، ووجدهم «تختخ» يهبطون في طريق بين تلَّين عاليَين من الرِّمال ... وكان الطريق ينحدر تدريجيًّا حتى وصلوا إلى منطقةٍ واسعة تُشبِه الدائرة، تُحيط بها التِّلال الرملية من كل جانب، وشاهَد «تختخ» على الفور هيكل السيارة «الكينور» الضخمة رابضًا في الظلام كأنه حيوانٌ خُرافي ... وقد أُخفيَ بمهارةٍ شديدة بالشِّباك ... وبجِوارها معسكرٌ مكوَّن من ثلاث خيمات؛ إحداها كبيرة، والباقيتان صغيرتان.

أخذ قلب «تختخ» ... يدقُّ سريعًا ... فها هي السيارة الضخمة ... وفيها عيِّنة المَعدِن الثمين الذي يدور حوله الصِّراع. لقد حُلَّت مشكلة اختفاء السيارة، ولكن كيف السبيل إلى إخطار رجال الشرطة؟

اختار تلًّا رمليًّا مُرتفعًا، وقبَع فيه يُراقب ما يحدُث ... كانت هناك أضواءٌ خافتةٌ يمكن رؤية أشباح الرجال وهي تتحرك عندها ... وشاهد «تختخ» «محب» و«عاطف» و«حماد» وهم يدخلون خيمةً من الخِيَم المنصوبة في الدائرة الواسعة ... وشاهَد شخصًا يقبع أمام الباب مُمسكًا ببندقيةٍ سريعة الطلقات.

كانت الساعة قد تجاوَزت منتصف الليل بنصف ساعة، كما تُشير ميناء ساعة «تختخ» الفسفورية، وكان يشعر بطعم الرمال يملأ فمه وأنفه ... وبالتعب يحلُّ بجسده ... وأخذ بَردُ الصحراء الليلي يتسلَّل إلى عظامه وهو بلا قميص ... وبرغم ذلك استسلم للنوم.

تختخ يعمل وحده

استيقظ «تختخ» على لسعة البرد، فقُرب الفجر حَلُم أنه نائم في حَوض من الثلج، وأنه يتألم، وعندما استيقظ وجد أسنانه تصطكُّ بردًا ... وأطرافه تكاد تتجمَّد، وبجوعٍ قاسٍ يجتاح مَعدته ... لحظةٌ رهيبة لم يرَ «تختخ» مِثلها في حياته ... وتذكَّر بمجرَّد يقظته كل ما حدَث في تلك الليلة وكأنه كابوسٌ مُخيف ... وأخذ يدلِّك وجهه وذراعَيه، ويحرِّك قدمَيه؛ فقد خشيَ أن تتجمَّد الدماء في عُروقه.

ونظر «تختخ» إلى ضوء الفجر الوليد ... كان المعسكر نائمًا ... وكل شيء هادئًا تمامًا ... لا صوت ولا حركة ... ولكنه بخِبرته كان يُدرك أنه لا بد من وجود حراسة في مكانٍ ما ... وتحرَّك بهدوء، ونزل التلَّ يحبو على قدمَيه ويدَيه ... حتى وصل دون أن يصدُر عنه أي صوت إلى حافة المعسكر؟ وأخذ يفحص ما حوله ... كثير من المَعاول والفئوس ... والمَقاطف ... لفَّات كبيرة جدًّا من البلاستيك تُشبِه السجاجيد ... أغرب شيء رآه «تختخ» كان ثلاثة قوارب من المطَّاط مفرَّغة من الهواء ... ماذا تفعل قوارب المطَّاط في الصحراء؟! وأخذ «تختخ» يبحث عن الحارس ... وأخيرًا شاهَده مُتمددًا نائمًا وقد تغطَّى حتى وسطه ببطَّانية ... ووضع بندقيَّته السريعة الطلقات بجِواره، وأخذ «تختخ» يفكِّر: هل يمكن السيطرة على المعسكر بهذه البندقية وحدها؟ إن هذا صعب؛ فهناك ثلاث خيمات منصوبة ... ولا يدري كم عدد الرجال فيها، وقرَّر أولًا أن يعرف مصير المصريين الخمسة الذين كانوا في السيارة، واقترب من السيارة حذرًا ... كانت غائصة في الرِّمال قليلًا ... وبابها الخلفي مُغلَق ... وحاوَل «تختخ» تجربة فتحه فلم يستطع ... وأدرك أن الرجال الخمسة محبوسون داخل السيارة ... وأن الباب مُغلَق بالمِفتاح.

ذهب «تختخ» إلى الخيمة التي يوجد بها «محب» و«عاطف» و«حماد»، وفضَّل أن يدخل من تحت الخيمة لا من الباب ... فقد يكون أحد الرجال معهم ... ورفع طرف الخيمة ونظر داخلها ... كانت مُظلِمة تمامًا ... وبعد لحظاتٍ استطاع أن يألَف الظلام، وبمساعدة خيوط ضوء الفجر المتسلِّلة ... شاهَد الثلاثة وقد رُبطوا بالحبال أحدهم إلى الآخر، مكوَّمين في طرف الخيمة وقد استغرقوا في النوم.

كان مَنظر الثلاثة يدعو إلى الرثاء ... فقد غطَّت الرمال أجسامهم ... وملأت شعورهم ... وبدَوا كأنهم قادمون من كوكبٍ آخَر ... تسلَّل «تختخ» داخلًا إلى الخيمة ... ثم مدَّ يدَيه وأخذ يفكُّ وثاقهم ... وكان «محب» أول من فتح عينَيه ونظر إلى «تختخ» ... لم يصدِّق عينَيه ... وخاصَّةً أمام شكل «تختخ» العجيب بلا قميص وقد غطَّته الرمال.

وهمس «تختخ»: كيف الحال؟

محب: أين ذهبت؟

تختخ: لقد انتهزت فرصة الظلام واختفيت في حفرةٍ قريبة!

وانهمك «تختخ» في حل الحِبال، واستيقظ «عاطف» ثم «حماد». وقال «عاطف»: إنني في غاية الجوع!

تختخ: لا تذكُر الطعام ... إنني أكاد أموت جوعًا وعطشًا معًا!

عاطف: ماذا يحدُث في هذا المكان الآن؟

تختخ: إنهم نائمون جميعًا ... وخُطتي أن نُحاول العودة من الطريق نفسه الذي جئنا منه!

حماد: إن ذلك صعب جدًّا ... فقد ظلَّت العاصفة فترةً طويلة بعد سيرنا، وأعتقد أنها غطَّت آثار الخطوات التي يمكن اتباعها ... ولكن عندي خطةٌ أخرى.

تختخ: ما هي؟

حماد: في إمكاننا الدَّوران من مكانٍ آخَر ... إن المسافة طويلة حقًّا، ولكن سبق لي أن جرَّبتها.

تختخ: وإلى أين تصل؟

حماد: إلى مَقابر العَلمين ... ومن هناك يمكن الاتصال بأي مكان.

تختخ: معقول جدًّا ... ولكن سننقسم إلى قسمَين ... سأبقى أنا و«محب» لمراقبةِ ما يحدُث هنا ... وتذهب أنت و«عاطف» ... من هذا الطريق الطويل.

عاطف: وكم يستغرق هذا الطريق؟

حماد: بين أربع وخمس ساعات إذا سِرنا مُسرِعين.

عاطف: وهل تظنُّ أن في إمكاننا أن نسير أربع ساعات ونحن في هذه الحالة ... إنني أفضِّل أن أقع أسيرًا مهما كانت النتائج!

تختخ: هل تسخَر يا «عاطف»؟

عاطف: أبدًا ... إننا لن نصِل مُطلَقًا ... ومن الأفضل أن نضع خطتنا على أن نفعل شيئًا الآن وهم نائمون.

تختخ: في هذه الحالة فلنُسرِع وهاتوا معكم الحبل.

عاطف: ولعلَّنا نجد طعامًا!

وخرج الأربعة من الخيمة من حيث دخل «تختخ» حتى يبقى باب الخيمة مُغلَقًا كما هو ... وارتكز «تختخ» على ركبتَيه ونظر ... كان المعسكر ما زال هادئًا ... واتَّجه وخلفه الثلاثة إلى حيث كان الحارس ... كان ما زال نائمًا وسلاحه بجانبه ... فانحنى «تختخ» بهدوء، وسحب المدفع الرشَّاش ... ثم أشار إلى الثلاثة ... فأمسك «محب» و«عاطف» بيدَي الرجل وكمَّما فمه ... وأسرع «حماد» يربطه بالحبل ... واستيقظ الرجل ... وبدَت في عينَيه نظرةُ دهشة حتى إنه لم يُقاوم ... وتمَّ ربطه بإحكام، وأشار «تختخ» للأصدقاء الثلاثة فسحبوه إلى الخيمة التي كانوا أسرى فيها، ووضعوه مكانهم.

قال «تختخ»: الخطوة التالية هي السيطرة على بقيَّة المعسكر ... ويَلزمنا البحث عن بقيَّة الأسلحة، وهي بالتأكيد داخل الخيمتَين حيث ينام بقيَّة هؤلاء الأشرار.

محب: والسيارة «الكينور» ... ما هي أخبارها؟

تختخ: أظنُّ أن الرجال الخمسة محبوسون فيها.

محب: إنها فرصتنا أن نُغادر المعسكر بها.

عاطف: والطريق الملغَّم؟!

تختخ: ما رأيكم في الحارس الأسير؟! ... إنه خيرُ دليل لنا في عبور الطريق إلى حافة الصحراء.

محب: عندي فكرةٌ مُمتازة ... ولكن إدارة محرِّك السيارة سيكفي لإيقاظ هؤلاء الرجال.

تختخ: إذا استطعنا تجريدهم من أسلحتهم ... فلن يُمكِنهم أن يتعرَّضوا لنا ... هيَّا بنا.

وسار الأربعة إلى الخيمة الأولى ... ووقف «تختخ» مصوِّبًا مدفعه إلى باب الخيمة، على حين دخلها «محب» وخلفه «عاطف»، وغابا لحظاتٍ ظنَّها «تختخ» سنةً كاملة، ثم ظهَرا

وهما يحملان رشَّاشَين، وفي يد «عاطف» صندوق من البسكويت. وقال «محب»: إنهما رجلان!

تختخ: هيَّا إلى الخيمة الأخرى!

وأسرعوا إلى الخيمة الأخرى.

دخل «محب» أولًا … كان في انتظاره مفاجأة … فقد وجد أحد الرجلين مُستيقظًا … وكانت لحظةً مُثيرة … فلم يكُن مع «محب» سلاح، وكان بجِوار الرجل — معلَّقًا في جانب الخيمة، بجانب الفِراش مباشرةً — مدفعٌ رشَّاش، لم يكُن واضحًا تمامًا … ولكن «محب» أدرك من هيكله أنه مدفعٌ سريع الطلقات. كانت عينا الرجل مفتوحتَين … وكانت يده على بُعد سنتيمترات من المدفع، وفي إمكانه أن يتناوله ويضرب في لحظةٍ واحدة قبل أن يتمكَّن «محب» من عمل أي شيء … ولكن المُدهِش أن الرجل ظلَّ مُبحلقًا دون أن يتحرك. وفكَّر «محب» … أنه ميت … وأحسَّ برعب لا يوصف … ولكن نظرةً أخرى إلى صدر الرجل أقنعته أنه يتنفَّس … إذن فهو ليس ميتًا … وليس مُستيقظًا في الوقت نفسه … شيءٌ غريب … ثم تذكَّر «محب» شيئًا … إن أحد أقاربه كان معروفًا بأنه ينام وعيناه مفتوحتان … وتنهَّد «محب» … حدَث كل هذا في أقل من نِصف دقيقة … و«عاطف» يقف صامتًا في انتظار أن يتحرَّك «محب»، فلما وجده واقفًا لا يتحرك، مدَّ يده وهزَّ كتفه … فالتفت إليه «محب»، ثم أشار إلى الرجل وهمس: نائم وعيناه مفتوحتان …

عاطف: أسرِع!

وتقدَّم «محب» لأخذ المدفع، ولكن مرةً أخرى حدَث شيءٌ مُثير … فقد تقلَّب الرجل في فِراشه المُلتصِق بالأرض، وطوَّح بساقه، فوقفت على قدم «محب» الذي تقدَّم بها إلى الأمام، وتوقَّف «محب» مرةً أخرى. كان عليه أن ينتظر لحظاتٍ حتى يُعاود الرجل الاستغراق في النوم.

في هذه الأثناء كان «تختخ» خارج الخيمة يكاد يُجَن … لماذا تأخَّر «محب» و«عاطف»؟ إنهما لم يخرُجا! وفي الوقت نفسه لم يسمع أي شيء يدلُّ على وجود صِراع بالداخل … هل استطاع الرَّجلان ضرب «محب» و«عاطف» دون أن يصدُر منهما أي صوت؟ غير معقول …

كانت الثواني في هذا الوقت تُساوي نجاح أو فشل الخطة، حياتهم جميعًا أو موتهم جميعًا … وتحرَّك «تختخ» إلى الأمام بعد أن أعدَّ المدفع للإطلاق، ولكن في هذه اللحظة بَرَز «عاطف» يحمل مدفعًا، ثم تبِعه «محب» وقد لمعت حبَّات العَرق على جبينه.

وابتسم «تختخ» لأول مرة وقال: لقد حقَّقنا نتيجةً مُذهِلة.

محب: المهمُّ أن نتمكَّن من الخروج من هذه الصحراء المُرعِبة.

حماد: من غابة الشيطان!

تختخ: هيَّا إلى الحارس نُحضِره ... ابقَ أنت يا «محب» واستعِدَّ بالسلاح حتى نعود.

ووقف «محب» بجِوار السيارة «الكينور» الضخمة وهو يرفع رشَّاشه، وبعد دقائق عاد الثلاثة ومعهم الرجل ... وحاوَل الأصدقاء الحديث معه باللغة العربية دون جدوى، وباللغة الإنجليزية دون جدوى، فأشار «محب» إلى مقدِّمة السيارة، فمشى الرجل إلى حيث أشار ... ولكن «تختخ» تذكَّر باب السيارة المُغلَق، وقرَّر شيئًا آخَر ... أن يقود أسيرهم السيارة بنفسه ... فأشار إليه بالمدفع الرشَّاش فصعِد إلى السيارة، وأشار «تختخ» إلى «عاطف» و«حماد» أن يركبا بجواره، وتسلَّق هو و«محب» السيارة، وجلسا على السطح عند حافتها، ودقَّ «تختخ» على السيارة بالمدفع ... ففهم «عاطف» أنه يطلب منهم السير ... وأدار الرجل المحرِّك ... وبَدَت السيارة الضخمة تهتزُّ وهي تُحاول تخليص عجلاتها من الرمال ... وزمجر المحرِّك بشدة وهو يبذُل جهده لتسيير السيارة، وفي تلك اللحظة ظهَر رجلان من الخيمة الأولى ... وقد بَدَت على وجهَيهما الدهشة الشديدة ... وشاهَدا المدفعَين الرشَّاشين في يد «تختخ» و«محب».

قال «تختخ»: لقد أفادنا التمرين في السويس أيام الحِصار ... هل تذكُر «لغز جاسوس السويس»؟

محب: وهل ينساه أحد؟

ظهَر الرَّجلان الآخَران ... وقال «تختخ»: ضَع عينَيك على هذين، وسأُراقب أنا الآخَرين.

بدأت السيارة تهتز، ثم بدأت تتحرك ... وفي حركةٍ عنيفة مُفاجئة خرَجت من الرمال، ولكن هذه الحركة العنيفة المُفاجئة كانت كافية لأن يفقد «تختخ» و«محب» توازُنهما، ويسقطان على الأرض من ارتفاعٍ كبير ...

عندما سقط «تختخ» و«محب» أسرع الرجال الأربعة ناحيتهما ... كانت المسافة بينهم وبين السيارة لا تزيد على ثلاثين مترًا ... قطعوها مُسرِعين وهم يعرفون أنها فرصتهم الوحيدة النادرة في إعادة السيطرة على المَوقِف ... واقتربوا حتى أصبحوا على بُعد خمسة أمتار فقط من السيارة ... ولم يكُن «تختخ» ولا «محب» قد وقفا بعد ... فقد كانت السقطة مُوجِعة ... خاصَّةً أن «تختخ» السَّمين سقط على ذراعه فالتَوَت بشدة ... على حين سقط «محب» على رأسه ... وأحسَّ بالإغماء يُعمي عينَيه فلا يرى ما أمامه.

لعبة الصبر

اندفعت السيارة الضخمة مُسرعةً إلى الأمام ... دون أن يُحسَّ «عاطف» ولا «حماد» بسقوط «تختخ» و«محب»، وفي الوقت نفسه كان الرجال الأربعة قد أصبحوا على بعد خطوات من الصديقَين المُصابَين، ولكن «تختخ» برغم الآلام الهائلة التي كان يُحسُّها في ذراعه ... أسرع يجذب المدفع الرشَّاش من الأرض ويرفعه أمام الرجال الأربعة.

توقَّف الرجال أمام حركة «تختخ» المُفاجئة ... ونظروا إليه بعيونٍ مملوءة بالغدر ... فقد بَدا لهم أن مِثل هذا الولد لا يمكن أن يهدم كل ما فعلوه ... وتقدَّم أحدهم خطوةً إلى الأمام مُحاولًا جذب البندقية السريعة الطلقات التي سقطت من «محب»، ولكن «تختخ» هزَّ مدفعه الرشَّاش مهدِّدًا ...

وكان واضحًا من حركته ونظراته أنه لن يتردد في إطلاق الرصاص.

ابتعد صوت السيارة حتى لم يعُد يسمع إلا طنينًا بعيدًا، وارتفع قُرص الشمس في الأفق ... وظلَّ «تختخ» يرتكز على إحدى ركبتَيه ... مُمسكًا بالمدفع الرشَّاش في يدَيه، لا يستطيع أن ينظر إلى «محب» المُلقى إلى جِواره بلا حَراك ... فقد كان يُدرك أنه لو حوَّل عينَيه لحظةً واحدة ... فقد ضاع ...

قال «تختخ»: «محب»!

ولم يسمع إجابة ... وأحسَّ بالخوف يَسري إلى قلبه ... هل حدَث لـ «محب» شيءٌ خطير؟! ... إن السيارة مُرتفعة، ولعله سقط فوق صخرة أو حتى فوق المدفع، وأُصيبَ إصابةً خطيرة ... وهو لا يستطيع أن يمدَّ له يد المساعدة، وإلا قُضي عليهما معًا.

ظلَّ قُرص الشمس يرتفع في مواجهة «تختخ» ... وأحسَّ شيئًا فشيئًا بالحرارة تَلفَحه، خاصَّةً وهو بلا قميص ... وما زالت الرمال تَلسع أنفه، وتتخلل فمه ... فلم يتَّسع وقته لغسل وجهه ... ولم يتناول طعامًا منذ غداء أمس.

كان كل شيء في الحقيقة يدعو إلى اليأس ... خاصَّةً وقد أخذَت حرارة الشمس ترتفع تدريجيًّا ... وحبَّات العَرق تنعقد على جبهته ثم تنحدر إلى عينَيه فتلسعهما كالنار ... كان يفكِّر في السيارة ... متى يكتشف «عاطف» أنهما قد سقطا؟! وكيف يتصرف؟ ... إنه يحرس السائق، ولا يستطيع مغادرة السيارة، ولعل السيارة لا تستطيع العودة.

كان ذِهنه يعمل في كل الاتجاهات؛ «لوزة» و«نوسة» و«عاطف» و«حماد» والسيارة ... «محب» الذي لا يتحرك ... الشمس الحارقة التي أصبحت جحيمًا لا يُطاق ... العَرق الذي ينزل في عينَيه ... الرجال الأربعة وهم يقفون أمامه ينظرون إليه في عداء وضراوة، إنهم غُرباء ما في ذلك من شك ... فعيونهم ملوَّنة عدا الواحد الذي يتحدث العربية ... وفكَّر «تختخ» أن يطلب منهم التراجع حتى يجد مكانًا ظليلًا ... ولكنهم أربعة ... وإذا تحرَّكوا فربما استطاع واحد منهم أن يُسرع بالاختباء خلف صخرة أو يفرَّ هاربًا ... وربما استطاعوا خِداعه بطريقةٍ ما ... وساعتَها لن يتردَّدوا في القضاء عليه وعلى «محب» ... إذا كان «محب» ما زال حيًّا ... وفي هذه اللحظة سمِع حركةً من «محب» بجِواره ... إنَّه يتحرك ... فهو حيٌّ ... ولكن ما مدى إصابته؟

قال «تختخ»: «محب»!

ردَّ «محب» في صوتٍ واهن: نعم!

تختخ: ماذا حدث؟

محب: لقد سقطت على رأسي وأُغميَ عليَّ.

تختخ: هل أنت أحسن حالًا الآن؟

محب: نعم ... ولكنِّي أشعر بدُوارٍ شديد.

تختخ: هل تستطيع رفع المدفع الرشَّاش؟

محب: نعم ...

تختخ: لا بأس ... فلا بد أن نجد بعض الماء؛ فإنني أكاد أموت عطشًا.

محب: لا تتحرك من مكانك الآن ... انتظِر قليلًا حتى أتمالك قُواي.

ووقفا مُتجاوِرَين ينظُران إلى الأسرى الأربعة ... وتحدَّث الرجل العربي فقال: ما الفائدة مما تفعلان ... لماذا لا نتَّفق؟

تختخ: نتَّفق على أي شيء؟

الرجل: سندفع لكما ما تشاءان، واتركونا نرحل!

تختخ: هل تهزل؟

الرجل: مُطلَقًا ... إن معنا قدرًا كبيرًا من المال ... وسندفع لكما ما تطلبان وننصرف.

تختخ: اقفلْ فمَك ولا تتكلم.

الرجل: إنكما مُجهَدان كما هو واضح ... ولن تتحمَّلا الوقفة طويلًا.

كان يتحدث حقًّا ... فقد كان المدفع الرشَّاش ثقيلًا ... وأحسَّ «تختخ» أن ذراعَيه ستسقطان به ... وأحسَّ برأسه يدور ... وفي الوقت نفسه كان يعلم يقينًا أنه لن يُطلِق الرصاص مُطلَقًا.

وكأنما كان الرجال الأربعة يعرفون هذه الحقيقة ... فقد بدا واحد منهم يتحرك إلى الأمام في اتجاه «تختخ» ... وصاح «تختخ» مُحذرًا: قِف مكانك.

ووقف الرجل، ولكن لحظةً واحدة، ثم تقدَّم مُسرعًا ... وفي هذه اللحظة سمِع الجميع صوتًا غريبًا في هذا المكان ... كان صوت كلب ينبح في وحشية، وقفز «زنجر» إلى ساحة المعركة ... قفزةً كانت أمام «تختخ»، والقفزة الثانية كانت فوق الرجل الذي سقط على الأرض والكلب فوقه.

كانت مُفاجأة من أروع المفاجآت في حياة المغامرين.

وصاح «محب»: «زنجر»!

تختخ: لعلَّه لم يأتِ وحده!

ولم يكَد «تختخ» ينتهي من جُملته حتى ظهَر ثلاثة ضُبَّاط ... ومعهم المفتش «سامي»، وبجِواره «نوسة» و«لوزة».

صاح المفتش: «توفيق» ... «محب»!

ألقى «تختخ» المدفع الرشَّاش من يده ... ثم تَهالَك على الأرض ... لقد جاءوا في الوقت المناسب ... ولو تأخَّروا ثانيةً واحدة لانتهى كل شيء.

أسرع الضُّباط الثلاثة يقيِّدون الرجال الأربعة، وقال تختخ: ألمْ تُقابلوا السيارة؟

المفتش: أيَّ سيارة؟

تختخ: السيارة الكينور!

المفتش: هل عثَرتم عليها؟

تختخ: طبعًا ... وقد رحل «عاطف» بها منذ ساعتَين!

المفتش: لا بد أننا جئنا من طريقٍ آخَر ... فقد جئت في الفجر ... ووجدت «نوسة» و«لوزة» في الفندق يُحاولان الاتصال بي بعد أن غِبتم طول الليل ... فخرجنا للبحث عنكم ... وفي الطريق وجدنا آثار انفجار ألغام ... وفكَّرنا أنكم أُصبتُم بسوء ... ثم قام «زنجر»

بالمهمَّة الباقية ... بعد أن أفهمَته «لوزة» أن يتجنَّب الألغام؛ فقد شمَّ آثارها، وعرف بذكائه العظيم أنها خطرة ... وسِرنا خلفه حتى عثرنا عليكم.

كانت «لوزة» و«نوسة» يمسحان الرمال والعَرق من وجهَي «محب» و«تختخ» وهما لا يصدِّقان ما يرَيانه.

بعد ساعةٍ كان الجميع قد عادوا إلى الطريق الممهَّد مرةً أخرى ... وكانت في انتظارهما سيارات رجال الشرطة ...

وطارت السيارات في اتجاه «سيدي عبد الرحمن» ... ولم تنقضِ نِصف ساعة حتى ظهرت السيارة «الكينور» الضخمة تتدحرج على الطريق في إحدى المُنحنَيات.

اقتربت سيارات رجال الشرطة وهي تُطلِق صفاراتها المدوِّية ... وتوقَّفت السيارة الكبيرة، ونزل «عاطف» مُبتسمًا وهو يحمل سلاحه، وخلفه نزل «حماد» ... وحاوَل السائق القفز من الجانب الآخر من السيارة في العَراء ... ولكن طلقة مسدَّس من أحد الضباط أوقفته مكانه.

وكان اللقاء مؤثِّرًا بين «عاطف» وبقيَّة المغامرين.

في مساء ذلك اليوم استيقظ المغامرون من نومٍ طويل ... وجاء المفتش «سامي» يروي لهم اعترافات الرجال الخمسة الذين خطفوا السيارة ... إنهم يتبَعون شركةً أجنبية كانت تُريد القيام بأبحاث في الصحراء بحثًا عن المَعدِن الثمين الذي عثَرَت عليه الشركة المصرية ... ولما رفضت الحكومة طلب الشركة الأجنبية، قرَّرت الشركة إرسال بعض رجال العصابات الأجنبية للاستيلاء على العيِّنة لأهميتها العلمية البالغة ... وقد ثبَت أنهم جاءوا بقوارب المطَّاط من سفينةٍ تنتظرهم في البحر ... وانتهزوا فرصة الظلام، ودخلوا المنطقة الملغومة ... فقد كان أحدهم من خُبراء المُفرقَعات، ووضعوا خطتهم للاستيلاء على السيارة بارتداء ملابس رجال الشرطة المصريين ... ثم انتظروا السيارة «الكينور» في الظلام، وقالوا إن هناك إصلاحات في الطريق ... ويجب أن تنحرف قليلًا داخل الرمال ثم تعود إلى الطريق المرصوف مرةً أخرى ... ولم تكَد السيارة تدخل المنطقة الرملية حتى انقضُّوا على الرجال الخمسة العُزَّل من السلاح، واقتادوا السيارة إلى معسكرهم، واستولَوا على العيِّنة، وكانوا يستعدُّون للفِرار في الليلة التالية حسب مَوعِدهم مع السفينة.

واختتم المفتش حديثه قائلًا: لقد قمتُم بعملٍ بُطولي لا مَثيل له ... ولكن كيف فكَّرتم في منطقة الألغام؟

تختخ: لقد كانت فكرةً بسيطة ... لقد فكَّرتم في الممكن ... ولم تفكِّروا في المستحيل ... وقلَبتُ أنا النظرية ... وقرَّرت أن أبحث المُستحيل قبل المُمكِن ... وعندما تعرَّفنا على «حماد» وسألته: هل كانت هناك مناطق خالية من الألغام؟ وعرفتُ أنها موجودة، فكَّرت أن أبحث في هذه المناطق ...

المفتش: لقد فكَّرت في الخطة نفسها ... ولكن كان لا بد من إحضار خُبراء في المُفرقَعات أولًا حتى يمكن السير في منطقة الألغام دون خطورة، وقد قابلت مُدير الأمن العام وممثِّل الجيش للبحث في هذه الخطة.

عاطف: في الواقع أن هناك من ضحَّى بنفسه في سبيل الكشف عن الألغام.

المفتش: من هو؟

عاطف: إنه الحِمار الأول الذي نسَفه اللَّغم.

وضحِك الجميع، فقال «تختخ» معلِّقًا: هذا صحيح ... فعندما عرفت أن المنطقة الخالية من الألغام قد بُثَّت فيها الألغام، عرفت على الفور أن هذا تمَّ حديثًا. لقد قام رجال العصابة ببثِّ الألغام بعد الاستيلاء على السيارة ليمنعوا أي شخص من الدخول خلفهم.

المفتش: فعلًا لقد قام الحِمار بواجبٍ هام ... فقد كنَّا سنحتاج إلى أيامٍ طويلة حتى نجد المكان ... وربما في هذه الفترة كان رجال العصابة قد فرُّوا بغنيمتهم الثمينة.

تختخ: وهل وجدتم العلماء المصريين داخل السيارة؟

المفتش: نعم ... وكانوا في حالةٍ يُرثى لها.

لوزة: والآن يا سيادة المفتش ... لقد خسِر «حماد» ثروته كلها ... الحمير التي نُسِفت.

ربَّت المفتش على رأس «لوزة» وقال: إننا بالطبع سوف نعوِّضه تعويضًا سخيًّا.

عاطف: ويجب أن نشترك نحن أيضًا في الدفع ... فقد أنقذ الحمار الأول حياتنا.

وضحِك الجميع وهم يتلقَّون دعوة المفتش لعشاءٍ آخَر بلا مناقشات.


هنداوي